

الدرس الرابع

(المتن)

والنوع الثاني من الشرك: الشرك به تعالى في الربوبية، كشرك من جعل معه خالقا آخر، كالمجوس وغيرهم، الذين يقولون: بأن للعالم ربين، أحدهما خالق الخير، يقولون له بلسان الفارسية "يزدان"، والآخر: خالق الشر، ويقولون له المجوس بلسانهم: "أهرمن".

(الشرح)

هذا هو الصنف الأول من المشركين في الربوبية وهم المجوس، لكن ينبغي أن نعلم أنهم لا يسوون بين يزدان وأهرمن، بل كما قال ابن أبي العز: لم يعرف عن أحد من الطوائف أنه قال إن العالم له صانعان متماثلان في الصفات والأفعال، فإن الثنوية من المجوس والمانوية القائلين بالأصلين النور والظلمة، وأن العالم صدر عنهما متفقون على أن النور خير من الظلمة، وهو الإله المحمود^١.

وأن الظلمة شريرة مذمومة، وهم متنازعون في الظلمة هل هي قديمة أو محدثة، والمقصود أنه حتى القائلين بوجود ربين لا يسوون بين هذين الربين، بل يجعلون الرب المقدم هو إله النور يزدان، أما إله الظلمة الذي يخلق الشر بزعمهم فإنه دون ذلك ويشكون هل هو قديم أو محدث.

(المتن)

وكالفلاسفة ومن تبعهم الذين يقولون: بأنه لم يصدر عنه إلا واحد بسيط، وأن مصدر المخلوقات كلها عن العقول والنفوس، وإن مصدر هذا العالم عن العقل الفعال، فهو ربّ كل ما تحته ومدبره.

(الشرح)

الفلسفة كلمة يونانية تعني محبة الحكمة، والفلاسفة موجودون في كثير من الأمم في اليونان، أو الإغريق، وفي الهنود وفي الرومان، لم يزل الفلاسفة ولا يزالون، وهم قوم لم يستنبروا بنور النبوات الإلهية، بل يحكمون عقولهم ويصرون الأشياء بأرائهم ولا يعتمدون على ما جاءت به الأنبياء، ولذلك يكثر خبطهم وتقولاتهم واختلافاتهم وتنشأ عندهم مدارس شتى.

فالمدارس اليونانية كثيرة مثل، الرواقيين، والمشائين، والسفسطائيين، وهي مذاهب شتى مختلفة؛ لأن معتمدتهم العقل، والعقل يختلف من شخص إلى شخص، فالفلاسفة من مبادئهم أنه لم يصدر من الخالق إلا واحد بسيط،

١ (شرح العقيدة الطحاوية) (١/٢٥-٢٩).

ويجعلون هناك عقولاً تسعة، العقل الفعال أو العقل التاسع، ثم يصدر عنه عقل بعده وهكذا إلى أن ينتهي الأمر إلى الهيولى التي هي المادة في أقوال لا دليل عليها، وإنما هي مجرد تخريصات. فهؤلاء أيضاً مشركون في الربوبية؛ لأنهم ينكرون التدبير وإن كانوا أقروا بأصل الخلق لله تعالى.

(المتن)

وهذا شرٌّ من شرك عبّاد الأصنام والجوس والتصارى، وهو أخبث شرك في العالم، إذ يتضمن من التعطيل وجمد الهيئته-سبحانه- وربوبية واستناد الخلق إلى غيره سبحانه ما لم يتضمنه شرك أمة من الأمم. وشرك القدريّة مختصر من هذا، وباب يدخل منه إليه، ولهذا شبههم الصحابة - رضي الله عنهم - بالجوس، كما ثبت عن ابن عمر وابن عباس - رضي الله عنهم -، وقد روى أهل السنن فيهم ذلك مرفوعاً: أنهم مجوس هذه الأمة^١.

(الشرح)

هذا هو الصنف الثالث، من أصناف المشركين في الربوبية القدريّة، وأول من عرف بالقدر في أمة محمد صلى الله عليه وسلم رجل يقال له معبد الجهني، كان في البصرة، وكان وهو من تبعه يقولون: إن الأمر أنف، يعني مستأنف على الله، فالله تعالى خلق الخلق وأمرهم ونهاهم ثم هو لا يعلم من سيطيعه ومن سيعصيه، ولم يخلق أفعالهم ولم يشأها! وهم غلاة القدريّة، أو القدريّة الأولى.

وقد أدركهم صغار الصحابة رضي الله عنهم وردوا عليهم وأغلظوا، عن يحيى بن يعمر، قال: (كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدْرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبُدُ الْجَهْنِيِّ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحَمِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْجَمِيرِيُّ حَاجِّينَ - أَوْ مُعْتَمِرِينَ - فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدْرِ، فَوَفَّقَ لَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ، فَاسْتَنْفَتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ، وَالْآخَرَ عَنْ شِمَالِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قِبَلْنَا نَاسٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ، وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ لَاقَدَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أَنْفٌ، قَالَ: «فَإِذَا لَقِيتَ أَوْلِيكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَاءٌ مِنِّي»، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ «لَوْ أَنَّ لَأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ» ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ وَالشَّاهِدُ قَوْلُهُ: وَتُؤْمِنُ بِالْقَدْرِ خَيْرَهُ وَشَرَّهُ^٢.

١ أخرج أبو داود - (٠).

٢ أخرج مسلم - (٨).

ثم إن هذه المقالة البشعة انقضت أو كادت؛ لأنها تتضمن وصف الله تعالى بالجهل، وحسبك بهذا، وقد قال الشافعي رحمه الله: ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خصموا وإن أنكروه كفروا، يعني قولوا لهؤلاء القدرية: هل الله تعالى عالم بكل شيء أم لا؟ فإن قالوا: نعم، عالم بكل شيء، قيل لهم: فقد وقعت أفعال العباد وفق معلومة، فهي مقدره، وإن قالوا: لا، لم يعلم فقد كفروا؛ لأنهم أنكروا معلوما من الدين بالضرورة، ووصفها الله بالجهل. ثم جاءت المعتزلة فحففوا شناعة مقالاتهم، وقالوا: ثبت العلم لله والكتابة، وأما المشيئة والخلق فلا، فالله علم وكتب، لكنه لم يشأ طاعة الطائع ولم يشأ معصية العاصي، ولم يخلق طاعة الطائع ولم يخلق معصية العاصي، بل العبد هو الذي خلق فعل نفسه طاعة أو معصية.

فلأجل ذلك سمو مجوس هذه الأمة، تشبيها لهم بالمجوس الذين يثبتون خالقين؛ لأن هؤلاء أثبتوا خالقين مع الله بعدد العباد، فكل عبد يزعمهم خالق لفعل نفسه، وهذا الحديث يروى مرفوعاً عن النبي ﷺ، وطرقه جميعاً لا تخلو من مقال.

(المتن)

وكثيراً ما يجتمع الشركان في العبد وينفرد أحدهما عن الآخر.

(الشرح)

اجتماع الشركين معا في العبد يعني الشرك في الربوبية والشرك في الألوهية وقع لبعض مشركي العرب والقبوريين وفرعون، وفرعون قال: وما رب العالمين؟ وقال في موضع: ما علمت لكم من إله غيري، فأنكر الربوبية ومن لازم ذلك أن ينكر الألوهية.

وقد ينفرد شرك الربوبية دون الألوهية، يشرك في الربوبية ولا يقع شرك في الألوهية، كما وقع من القدرية، فإن القدرية كما أسلفنا أثبتوا خالقاً مع الله وجعلوا العبد يخلق فعل نفسه، لكنهم يعظمون جانب الأمر والنهي، فيلزمون بامتثال الأوامر واجتناب المناهي إلى درجة الغلو أحياناً. قد ينفرد شرك الألوهية دون الربوبية، كعامة مشركي العرب، فإنهم يثبتون الله خالقاً ومالكا ومدبراً لكنهم يدعون غيره ويدجون لغيره وينذرون لغيره وهكذا.

(المتن)

والقرآن الكريم بل الكتب المتزلة من عند الله - تعالى - كلها مصرحة بالرد على أهل هذا الإشراك، كقوله تعالى: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ}**، فإنه ينفي شرك الحبة والإلهية.

وقوله: **{وَأَيَّاكَ نَسْتَعِينُ}** فإنه ينفي شرك الخلق والربوبية، فتضمنت هذه الآية تجريد التوحيد لرب العالمين في العبادة، وأنه لا يجوز إشراك غيره معه، لا في الأفعال ولا في الألفاظ ولا في الإرادات.

(الشرح)

هذه القطعة تبين تعريف الشيخ بالكتاب؛ لقوله: (فتضمنت هذه الآية تجريد التوحيد لرب العالمين)، فقد عقد هذا الكتاب لتجريد التوحيد من شوائب الشرك في الأفعال وفي الألفاظ وفي الإرادات وها هو يشرع في بيان ذلك على سبيل التفصيل.

(المتن)

فالشرك به في الأفعال، كالسجود لغيره سبحانه وتعالى، والطواف بغير البيت المحرم، وحلق الرأس عبوديةً وخضوعاً لغيره، وتقبيال الأحجار غير الحجر الأسود الذي هو يمينه في الأرض، أو تقبيل القبور واستلامها والسجود لها.

(الشرح)

هذه أمثلة للشرك في الأفعال:

- السجود لغير الله شرك وقد كان قبل شرعة نبينا ﷺ عبارة عن تحية كما قال الله تعالى عن إخوة يوسف: **{وَاخْرُؤْا لَهُ سُجْدًا}** [يوسف: ١٠٠] ، وكسجود الملائكة لآدم، فإن هذا لم يقع على سبيل العبادة له قطعاً، بل وتكريماً وامتنالاً لأمر الله تعالى: لما جاء معاذ بن جبل من الشام إلى النبي ﷺ خر له ساجداً، فقال له النبي ﷺ: مه، قال: يا رسول الله رأيتهم يسجدون لأحبارهم، فلأنت أولى أن يسجد لك، قال: عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«لَوْ كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا»**^١ فالسجود لغير الله ﷻ شرك.
- الطواف بغير بيته المحرم: الطواف بغير بيته المحرم تقرباً لغير الله شرك، وأما الطواف بغير البيت المحرم تقرباً لله فهو بدعة، وأما إذا طاف به تقرباً لهذا المطاف به فهذا شرك.
- حلق الرأس عبوديةً: حلق الرأس عبادة كما نفعل في المناسك، فلو أن إنساناً حلق شعر رأسه تقرباً لفلان الحي، أو الميت، فقد أشرك شركاً أكبر.

١ أخرجه الترمذي - (١١٥٩)، وابن حبان - (٤١٦٢)، والحاكم - (٢٧٦٨)، وقال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه، وصححه الألباني - (في الجامع الصغير - ٥٢٩٤).

٤. تقبيل الأحجار غير الحجر الأسود: الحجر الأسود شرع الله تقبيله، فلو قبل إنسان حجرا تعظيماً لذلك الحجر فإن ذلك شرك في الأفعال.

وقوله: الذي هو يمينه في الأرض، هذا قد روي فيه حديث، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: **(الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يَمِينُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ صَافَحَهُ وَقَبَّلَهُ فَكَأَنَّمَا صَافَحَ اللَّهَ وَقَبَّلَ يَمِينَهُ)**، ولكن هذا الحديث لا يصح مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وربما صح موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنه، ومع ذلك فليس في الحديث إشكال عند التأمل؛ لأنه قال: يمين الله في الأرض، والله في السماء، فقطعاً وجزماً أنه لا يمكن أن يكون الحجر الأسود هو يمين الله الذي هي صفته، فإن الله فوق سماوته مستو على عرشه بائن من خلقه.

ثم تأمل أنه قال في الحديث: **(فَمَنْ صَافَحَهُ وَقَبَّلَهُ فَكَأَنَّمَا)**، والكاف للتشبيه والمشبه غير المشبه به، وبذلك يرتفع الإشكال الذي قد يتوهمه بعض الناس على فرض صحة هذا الحديث.
٥- أو تقبيل القبور واستلامها والسجود لها: فذلك من شرك الأفعال.

(المتن)

وقد لعن النبي صلى الله عليه وسلم من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى الله فيها، فكيف من اتخذ القبور أوثاناً تعبد من دون الله؟. فهذا لم يعلم معنى قوله تعالى: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ}**، وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال **«لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسْجِدًا»**^٢. وفيه عنه - أيضا - : **« إِنْ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَمَنْ يَتَّخِذُ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ »**^٣.

وفيه - أيضا - عنه صلى الله عليه وآله وسلم: **«أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»**^٤.

١ مجموع الفتاوى - (٦/٣٩٧).

٢ أخرجه البخاري - (١٣٣٠)، ومسلم - (٥٢٩).

٣ علقه البخاري - (٧٠٦٦)، وأخرجه أحمد - (٣٨٤٤)،.

٤ أخرجه مسلم - (٥٣٢).

وفي مسند الإمام أحمد وصحيح ابن حبان عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ»^١.
وقال: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»^٢، رواه مالك، وقال: «إِنَّ أَوْلَيْكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَ، فَأَوْلَيْكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ»^٣.

(الشرح)

هذه الأحاديث تدل على حماية النبي ﷺ لجناب التوحيد وسده جميع الطرق الموصلة إلى الشرك، فإن كل طريق وذريعة يتوصل بها إلى الوقوع في الشرك يجب أن تسد، وإنما وقع شرك بني آدم فيما مضى بسبب الصور، فإن الشيطان أتى إلى قوم نوح وكانوا يعظمون ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا وهم رجال صالحون، أتوا إليهم الشيطان بعد أن هلكوا وقال: لو أنكم عمدتم إلى مواضعهم التي كانوا يجلسون فيها فصورتهم فيها صورهم لتذكروهم وتنشطوا على العبادة، ففعلوا، فلما فني ذلك الجيل جاء جيل بعدهم فأتاهم الشيطان وقال: اعبدوهم فإنهم يقربوكم إلى الله زلفى فعبدوهم، هكذا أتى الناس من باب الصور والتماثيل، ولهذا يجب الحذر من التوسع في باب الصور والتماثيل، فإنها مدعاة إلى الوقوع في الشرك.

ولهذا أبدى النبي ﷺ تغيبه وحنقه على النصارى، وهو على فراش الموت، لما حدثته أم حبيبة بما رأته في أرض الحبشة، في كنيسة رأتها في أرض الحبشة أم سلمة وأم حبيبة رضي الله عنهما، وما فيها من التصاوير، وكان النبي ﷺ في مرض موته، فقال: «إِنَّ أَوْلَيْكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَ، فَأَوْلَيْكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^٤؛ فلأجل هذا يجب تجريد التوحيد من كل شائبة من الأفعال توقع في الشرك.

١ أخرجه أحمد - (٢٠٣٠)، وأبو داود - (٣٢٣٦)، والترمذي - (٣٢٠)، وقال: حديث ابن عباس هذا حسن.

٢ أخرجه مالك - (٥٩٣).

٣ أخرجه البخاري - (٤٢٧)، ومسلم - (٥٢٨).

٤ سبق تخريجه.